Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

الدرس الصوتي عند سيبويه وموقعه في الدرس اللساني الحديث

جمال شلباب باحث دكتوراه - د. عمار بن لقريش
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الملخّص:

شهد الدّرس اللّغوي في العصر الحديث تطوّرا كبيرا، مع ظهور اللسانيات الحديثة على يد اللّغوي فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure، الذي أعاد النّظر في كثير من المفاهيم التي كانت سائدة قبلُ، وقد شمل هذا التّغيير الأسس النّظرية التي كانت تتبني عليها هذه الدّراسة، ولمّا كان الأمر على هذه الشّاكلة فقد عنى أصحاب كلّ لغة بلغتهم، لذا فعلم الصّوتيات ليس علما جديدا؛ لأنّه واحد من العلوم التي تقوم عليها اللّغة، ومن المعلوم أنّ العرب من السبّاقين في الدّراسة اللّغوية والصوتية على وجه الخصوص، وكان لهم تراث ضخم أفاد منه المعاصرون بصورة كبيرة، وقد شهد بذلك كبار منظريهم.

كلمات مفتاحية:

الدرس الصوتي – سيبويه – الدرس اللغوي الحديث

Le Résumé :

Les études linguistiques de l' époque moderne ont connu un grand dévelappement avec l' avènement de La linguistique par le linguiste Ferdinand De Saussure qui a reconsidéré plusieurs concepts qui prévalaient avant. Ce changement a inclu les fondements théoriques sur lesquelles a été construit cette étude.

Selon cette règle, chaque communauté s'est occupé de sa langue. Sur cette base, la phonétique n'est pas considéreé comme une science nouvelle parce qu'elle est l'une des sciences sur lesquelles se fonde la langue.

Ansi, les arabes sont compté parmi les premiers dans l'étude linguistique et phonétique en particulier. Ils ont un patrimoine énorme dont les contemporains ont bénéficié d'avantage, selon le temoingnage de leurs grands théoriciens.

Mots-clés:

Leçonphonétique– Sibawayh – Leçon de langues vivantes

إنّ اللّغة أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم[1]، والصّوت بوصفه لغويّا يعني: تتبّع الظّواهر الصّوتية لحروف المعجم العربي؛ وذلك من حيث مخارجُ الأصوات وصفاتها، وأقسامها وأصنافها، وأحكامها وعللها ودلائلها وخصائصُها في أحوال الجهر والهمس،

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

والشدّة والرخاوة، وملامح صوائتها وصوامتها في السّكون وعند الحركة، وضوابطها في الإطباق والانفتاح[2].

من هنا فإنّ الدّلائل التي ظهرت في الدّرس الصوتي العربي بيّنت بأنّ علماء العربية قد مهّدوا بين يدي الغربيين جادّة البحث المنظّم في استكناه الصوت اللّغوي وأسهموا إسهاما حقيقيا في إرساء ركائزه الأولى مما أتاح لهم فرصة الاستقرار المبكّر لحقيقة الأصوات اللغوية، والتوصّل إلى النتائج التي تواضعت عليها اليوم حركة الأصواتيين العالميّة، بعد المرور بتجربة المعادلات الكاشفة، والأجهزة الفيزيولوجية المتطورة التي أكدت صحّة المعلومات التي ابتكرها العرب في هذا الميدان.

وفي طليعة العلماء العرب نجد سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنبر ت180هـ) الذي يعدّ الرائد في الدراسات الصوتية العربية، وأعماله في هذا المجال هي الأساس لجلّ الأعمال الصوتية لمن جاء بعده.

وسيبويه يمثل المدرسة الخليلية إلاّ بعضا من الاختلافات البسيطة، فالخليل (ت ١٧٥ هـ) هو من تناول الصوتيّات بشكل واضح، وإن لم يشر إلى علم الأصوات عنوانا أو بابا أو جزءا من علمه في المقدّمة – مقدّمة العين– فقد عُرضت المعلومات الصوتية من غير تعيين العلم الذي تنسب إليه، والأمر عينه عند سيبويه ومن جاء بعدهما، يقول المخزومي: « أنّ الخليل أولُ من التفت إلى صلة الدّرس الصّوتي بالدّراسات اللّغوية والصّرفية والنّحوية، ولذلك كان للدّراسة الصوتية من عنايته نصيب كبير، فقد أعاد النّظر في ترتيب الأصوات القديمة؛ الذي لم يكن مبنياً على أساس منطقي، ولا على أساس لغوي، فرتّبها بحسب المخارج في الفم، وكان ذلك فتحاً جديداً، لأنّه كان منطلقاً إلى معرفة خصائص الحروف وصفاتها»[3]. بل إنّ ما توصّل إليه محقّق العين في المقدّمة كان صحيحا من أنّ « بواكير معلومات صوتية لم يدركها العلم فيما خلا العربية من اللغات إلاّ بعد قرون عدّة من عصر الخليل»[4].

ولسيبويه قدم سبق مشهود له في قضايا الإدغام، وهي معالم صوتيّة في الصّميم، فقد قدّم لها بدراسة علم الأصوات، كما قدّم الخليل معجمه بعلم الأصوات فالخليل قد ربط بين اللّغة والصّوت، وسيبويه ربط بين قضايا الصّوت نفسِها، لأنّ الإدغام قضية صوتية « ونحن نقرر هنا مطمئنين أنّ سيبويه قد وضع قواعد هذا البحث وأحكامه لا لفترة معينة من الزمن، بل يكاد يكون

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

ذلك نهائياً، وكان تصرّفه فيها تصرفاً رائعاً، صادراً عن عبقرية سبقت الزمن، فلم يكن ممن جاء بعده من العلماء والباحثين إلا أن اتبعوا نهجه، واكتفوا بما قال ولم يزيدوا بعد سيبويه على ما قال حرفاً بل أخذوا يردّدون عباراته في كتبهم، ويصرّحون بأنّهم إنّما يتبعون مذهبه، سواء في ذلك علماء النحو وعلماء القراءة»[5] .

وهذه بعض القضايا الهامّة التي نبغ فيها سيبويه فيما يتعلق بالدّرس الصّوتي ومن ثَمّ رأي المحدثين فيها:

أولا: الصوت في منهجية سيبويه:

لسيبويه قدم سبق مشهود له في قضايا الإدغام، وهي معالم صوتية في الصميم، فقد قدّم لها بدراسة علم الأصوات، كما قدّم الخليل معجمه بعلم الأصوات فالخليل قد ربط بين اللغة والصوت، وسيبويه قد ربط بين قضايا الصوت نفسِها، لأنّ الإدغام قضية صوتية

وذكر تمام حسان أنّ سيبويه قد تنبّه إلى أهمية الصوت اللغوي، وأدرك أهمية النّظام الصوتي وكان على وعي تام بأنّ دراسة الأصوات مقدّمة لابدّ منها لدراسة اللغة[6] .

ويضيف: أنّ النظام الصوتي ضروري لمن أراد دراسة النّظام الصّرفي بل لعله كان يرى في النّظام الصّوتي جزءا لاحقا أو من دراسة الصّرف نفسِها فوضع الدّراسات الصوتية تحت عنوان (باب الإدغام)[7] معتمداً في ذلك على حسّه المرهف الدّقيق في تمييز الأصوات، واستطاع بالملاحظة أن يصل إلى وصف دقيق للأصوات العربيّة دون أن تكون هناك وسائل تستخدم كما هي عند المحدثين، وفي هذا الصّدد فإنّ أشهر الدّراسات المعاصرة التي أوقفها صاحبها للدّرس الصوتي عند سيبويه هي (علم الأصوات عند سيبويه وعندنا للمستشرق الألماني **:شاده** (shade : 1952 –1883). حيث يقول: « وعلى كلّ فأول من خلّف لنا وصفا مفصّلا لأصوات العربيّة وإنتاجها، هو رجل فارسي الأصل أعنى ...سيبويه»[8].

وقد كشف سيبويه عن وجهة نظره هذه من جهة، وقيّد دراسة الأصوات وضيّق مجالها من جهة أخرى « وتأتي دعوى التّضييق لمجال دراسة الأصوات من أنّ الإدغام ليس جزءا من النّظام الصوتي وإنّما هو ظاهرة سياقيّة ترتبط بمواقع محدّدة يلتقي في كل منها صوتان السّابق منهما ساكن والتّالي متحرك، فإذا تحقّقت صفات خاصّة في الصّوتين جميعا تحقّقت بذلك ظاهرة الإدغام كما فهمها سيبويه»[9].

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

وقد اتّجه سيبويه عند النّظر في استنباط الحروف من الأصوات اتجاها عكس ما يراه المحدثون، فهم يرون أنّ اتّجاه البحث الحديث إنّما يكون من الأصوات إلى الحروف، إذْ ينظم الباحث ما لديه من أصوات جرت ملاحظتها ووصفها وتبويبها إلى مجموعات تسمّى كلّ مجموعة منها حرفا، ولكن سيبويه حين تصدّى لتحليل الأصوات العربيّة كان بين يديه نظام صوتي كامل معروف ومشهور للّغة العربية، وكانت الحروف التي شمل عليها هذا النّظام قد جرى تطويعها للكتابة منذ زمن طويل، فكان لكلّ حرف منها رمز كتابي يدلّ على الحرف في عمومه دون النّظر إلى ما يندرج تحته من أصوات، فارتضى سيبويه وأصحابه هذا النّظام الصوتي المشهور، ومن هنا رأينا الأصوات العربية التي تحت كل حرف من هذا النظام لا تعدو أن تكون صفة لهذا الحرف كأن تكون إدغاما له أو إقلابا أو إخفاء أو إمالة وهلمّ جرا.

وترتيب الحروف في كتاب سيبويه تخالف ترتيب أستاذه الخليل، إذ بدأ بالهمزة والألف والهاء، وقدّم الغين على الخاء، وأخّر القاف عن الكاف وهكذا ... وهذا الاختلاف من قبيل وجهة النظر الصوتية المختلفة، ولكنه لايمانع أن تكون آراء سيبويه في الكتاب امتدادا طبيعيا لمدرسة الخليل[10].

يتضح هذا من ترتيبه للحروف على النحو الآتي:

همزة. ا. هـ. ع. ح. غ. خ. ك. ق. ض. ج. ش. ي. ل. ر. ن.
ط. د. ت. ص. ز. س. ظ. ذ. ث. ف. ب. م. و[11] .

فهي خمسة وثلاثون حرفاً بحروف هنّ فروع، وأصلها من التّسعة والعشرين وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي:

1- **النّون الخفيفة:** ويقصد بها النّون الخفيّة، وهي غير النّون الخفيفة التي تكون مخفّفة من نوني التوّكيد، بل هي النّون السّاكنة التي تظهر في حالة ما يسمّى (بالإخفاء) وتأخذ حكم النّون إذا سُكّنت قبل خمسة عشر صوتاً، وهي: (ت ث ج ، د ، ذ ، ز ، س، ش ، ص ، ض ، ط ، ظ ، ف ، ق ، ك)[12] ، كما أنّها – النّون الخفيفة– تسمّى(الغنة) وتخرج من الخيشوم.

وعلّل ابن يعيش سبب خفائها، فقال: خفيت مع حروف الفم لأنهنّ يخالطنها، ومثال ذلك النّون في (منك) و(عنك).

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

2- **الهمزة التي بيْن بين:**« وهي الهمزة المسهّلة، التي لا يضغط النّاطق على أوتار الحنجرة عند أدائها وهي عند التّحليل مندمجة في الحركة التّالية لها "المخفّفة" ووصفها تمام حسان بقوله: «هي همزة متحركة تكون بعد ألف، أو بعد حركة، فتصير في النّطق مجرد خفقة صدريّة لا يصاحبها إقفال للأوتار الصوتية»[13] كما في قوله تعالى: « أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ».

ويوضح **برجشتراسر** سبب تسهيل هذه الهمزة فيقول: «إنَّ الهمزة أصعب إخراجا من غيرها من الحروف فينبغي لإخراجها تغليق فم الحنجرة وهو مفتوح في غيرها فينقطع الزّفير المتواصل الخروج أثناء الكلام»[14].

3- **الألف الممالة إمالة شديدة:** ترتبط هذه الألف بمجموعة من القواعد التي تنظّم ظاهرة الإمالة في القراءات القرآنية، فهي – كما يبدو- الألف الجانحة نحو الياء كقراءة حمزة والكسائي ونافع[15]، في قوله تعالى: «والضُّحَى واللَّيْلِ إذا سَجَى»، وقوله تعالى: «بِسْمِ اللَّهِ مجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا»،(هود 41) بإمالة ألف (مجراها) لتصبح (مجريها) بالكسرة. فهي تمال إذا كان بعدها حرف مكسور، مثل(عابد وعالم) و(مساجد ومفاتيح). قال سيبويه: « أرادوا أن يقرّبوا الألف منها»[16].

وقد أيّد المحدثون ما ذهب إليه سيبويه والنّحاة العربُ فيما ذكروه من أسباب تمنع الإمالة، وأضافوا إلى الحروف المستعليّة صوت الرّاء واللاّم المفخّمين، وذلك لأنّ تفخيمهما يحتاج إلى استعلاء فلا تمال الألف معهما، لأنّ في الإمالة انخفاض، وهذا عكس الاستعلاء، فيحصل الاختلاف بينهما. وقد أنكر سيبويه على من يميل الألف مع تلك الحروف المستعلية، فقال: «ولا نعلم أحداً يميل هذه الألف إلاّ من لا يؤخذ بلغته»[17].

4- **الصاد التي تكون كالزاي** :«هي تلك الصّاد الساكنة قبل صوت مجهور، في مثل نطقنا للكلمة (مصدر) حيث تنطق الصاد مجهورة. وصفة الجهر التي اكتسبتها هذه الصّاد الفرعيّة كانت نتيجة تجاورها مع الدّال المجهورة أصلاً»[18]. وبيَّن سيبويه ذلك الأثر فقال: « ولا تفعل ذلك بالصّاد مع الرَّاء والقاف ونحوهما، لأنّ موضعهما لم يقرب من الصّاد كقرب الدّال»[19]. ومثالها أيضاً قراءة حمزة: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» [الفاتحة 06]، بإشمام الصّاد إلى الزّاي، وعلّل ابن يعيش سبب ذلك الإشمام بقوله: «حتّى توافق الطّاء في الجهر، لأنّ الصّاد مهموسة، والطّاء والدّال مجهورتان فبينهنّ تناف وتنافر فأشربوا الصّاد صوت الزاي، لأنّها أختها في الصّفير والمخرج، وموافقة الطاء والدال في الجهر، فيتقارب الصّوتان ولا يختلفان»[20].

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

وقد ذكر تمام حسان أنّ سيبويه أضاف إلى ذلك (حروفا) ثمانيّة أخرى غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته ولا تستحسن في قراءة القرآن والشعر ولم يحدد سيبويه بالنسبة لهذه الثمانية ما إذا كانت قاصرة على الكلمات المعربة من اللغات الأجنبية دون الكلمات الأصلية في العربية أو أنها كانت توجد في الكلمات الأصلية كذلك[21]

5- **الشين التي كالجيم:** بالرّغم من أنَّ سيبويه لم يضرب مثالاً لهذه الشّين إلاّ أنّه يُفهم من قوله (كالجيم) أنَّ هذه الجيم تكون مجهورة، ويبدو أنَّ سبب إبدالها شيناً مجهورة وليست جيماً خالصة، هو أنّ الجيم الخالصة شديدة حسب قول سيبويه، ومثّل لها بنطقهم (أشـ ج دق) بشين مجهورة قريبة من نطق الجيم[22] .

ثانيا: في مخارج الأصوات

لقد عرَف سيبويه أعضاء الجهاز النطقي ووصفها وصفاً دقيقاً اعتماداً على آلية النّطق، قبل أن يعرف عن فيزياء الصّوت وتشريح الأعضاء ونحوها من المعارف المستحدثة. ولم يكن سيبويه يفرّق بين اصطلاحي (الحرف)، أو (الصوت) على نحو ما يفرّق علم اللغة الحديث بينهما، أي بين مصطلحي phineme و allophone فالحرف عنده يشمل كلّ ذلك[23]، لكن في الدّرس الحديث فإنّ المستشرق الألماني **شاده** قال إنّ استعمال سيبويه مصطلح "الحرف" للرمز المكتوب وللصوت المسموع، هو من قبيل ازدواج المصطلحات. من هنا فإن الفرق بين الحرف والصوت هو:

- الحرف = النَّفَس
- الحرف = المقطع

والنَّفس والمقطع معياران أساسيان في تحديد المخرج في علم الصوتيات الحديث[24]. وقد أحصى سيبويه المخارج التي تخرج من الأصوات العربية فعدّها خمسة عشر مخرجا، مخالفا بذلك أستاذه الخليل الذي عدّها سبعة عشر مخرجا.

والمخارج هي:

1- ثلاثة مخارج للحلق:

أ- أقصى الحلق، وهو للهمزة والهاء والألف.

ب- وسط الحلق، وهو مخرج العين والحاء.

ج- أدنى الحلق من الفم، وهو للغين والخاء[25].

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

«وما توصّلت إليه التجارب الحديثة يدلّ على صحّة كلام سيبويه في كل هذا فلكلّ صوتين من أصوات الحلق حيز معين، يحلاّن فيه معاً، دون ترتيب لأحدهما على الآخر، غير أنَّ بعض المتأخرين من العلماء كانوا يتوهّمون أنّ العين تسبق الحاء، وأنَّ الغين تسبق الخاء، على حين أنَّ بعضاً آخر منهم كان يرى العكس في هذا الترتيب»[26].

2- من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف.

3- من أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف..

وقد ذهب بعض دارسي الأصوات العربيّة من المحدثين إلى ترتيب آخر في توزيع مخارج الحروف الأربعة (غ خ/ق ك) يتلخّص في تقديم مخرج القاف على مخارج الحروف الثّلاثة الأخرى، فتكون (غ خ ك) من أقصى الحنك، وتكون القاف من اللّهاة أعمق من الحروف الثلاثة، بينما ذهب بعضهم إلى عدّ (غ خ ك) من اللّهاة وما يتّصل بها من غشاء الحنك، مع إبقاء الكاف من أقصى الحنك[27].

4- من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء.

5- من بين أول حافة اللّسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد.

6- من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينهما وبين ما يليها من الحنك الأعلى، وما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية مخرج اللام.

7- من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون.

8- من المخرج السابق غير أنّه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام مخرج الراء.

9- مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء.

10- مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد.

11- مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء.

12- من باطن الشّفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء.

13- مما بين الشّفتين مخرج الباء والميم والواو.

14- من الخياشيم مخرج النّون الخفيفة.

وقد ذكر ابن جني أنَّ ترتيب سيبويه هو الصحيح[28].أمّا المحدثون فقد وزّعوا مخارج الأصوات اللّغوية الرئيسة على عشرة مخارج كما أوردها تمام حسان على النّحو الآتي[29]:

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

1- الشفتان :ويسمّى الصوت الخارج منهما **شفوياً** أو الشّفوي الثنائي أو(شفتاني Bilabial) وعند النّطق تقفل الشّفتان أو تنفرجان أو تستديران، والأصوات الخارجة من هذا المخرج هي(الباء ، الميم ، الواو) .

2- الشفة السفلى مع الأسنان العليا :ويسمّى الصّوت الخارج منهما **شفوياً أسنانياً** (Labio Dental) وينطق بتضييق مجرى الهواء عند اتّصال الشفة السّفلى بالأسنان العليا، وينتج في هذا المخرج صوت واحد هو (الفاء)[30] .

3- الأسنان: ويسمّى الصّوت الخارج من هذا الموضع **أسنانياً** (Dental) وينطق عند اتصال طرف اللّسان بالأسنان العليا، والأصوات الخارجة منه: (الذال، الظاء الثاء).

4- الأسنان مع اللثة: ويسمّى الصوت الخارج منهما **أسنانياً لثوياً** (Denti-alveolar) ويخرج الصوت عند اتصال طرف اللّسان مع الأسنان العليا، ومقدّمة اللسان باللثة وهي (أصول الثنايا). والأصوات الخارجة نوعان: – (الدال، والتاء ، والضاد ، والطاء) وهي انفجارية.– (السين، والزاي، والصاد) وهي استمرارية[31].

5- اللثة :ويسمّى الصوت الخارج منها **لثوياً** (Alveolar) ويخرج الصّوت عند اتصال طرف اللسان باللثة والأصوات الخارجة منهما هي: (اللام ، والرّاء ، والنّون).

6-**الغار** :ويسمّى الصّوت الخارج منه **غارياً** (Palatol) ، ويخرج الصوت عند اتصال مقدم اللسان بالجزء الصلب الذي يلي اللثة ويسمّى الغار. والأصوات الخارجة منه هي: (الشين، والجيم، والياء)*.

7- **الطبق**: ويسمّى الصّوت الخارج منه **طبقياً** (Velar) وينتج هذا الصّوت عند اتصال مؤخر اللسان بالطبق (وهو الجزء الرخو من مؤخر سقف الحنك). والأصوات الخارجة منه هي: (الكاف، والغين، والخاء).

8- اللهاة: ويسمّى الصّوت الخارج منها **لهوياً** (Uvular) ، وينتج الصّوت عند اتّصال مؤخر اللّسان بمنطقة اللهاة (وهي آخر جزء من مؤخّر الحنك) مع الطبق اللّين (بصورة لا تسمح بمرور الهواء)، يعقبه تسريح فجائي له (انفجاري)، والصّوت الخارج منها هو صوت: (القاف) فقط.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

9- الحلق: ويسمّى الصوت الخارج منه **حلقياً** (Pheryngal) وينطق الصّوت عند تضييق منطقة الحلق ويخرج منه صوتان هما (العين، والحاء)، ويتم إنتاجهما عن طريق تقريب جذر اللسان من الجدار الخلفي للحلق، بصورة تسمح بمرور الهواء مع حدوث احتكاك (استمراري)[32].

10- الحنجرة: ويسمّى الصّوت الخارج منه حنجرياً (Glottal)، وينتج الصّوت . إقفال الوترين الصوتيين أو تضييقهما في قاعدة الحنجرة، والأصوات الخارجة من هذا المخرج هما (الهمزة، والهاء).

ثالثا: صفات الأصوات

تُعدّ دراسة صفات الأصوات العربيّة في كتاب سيبويه من أقدم الدّراسات، فقد نحا منحى آخر في دراسة الصّفات أكثر شمولاً، وأوضح تعبيراً، وأبعد أثراً في الدّرس الصوتي، فذكر من الصّفات ما هو متقابل، كالمجهور والمهموس، والشديد والرخو وما بينهما، والإطباق والانفتاح، والاستعلاء والاستفال، والتفخيم والترقيق. ومنها ما هي منفردة، مثل: القلقة، والصفير، والتكرار، والانحراف، والتفشي، والغنّة. معتمداً في ذلك على معيار تحكّم جهاز النّطق في الهواء الخارج من الفم.

1- الجهر والهمس:

ممّا يجلب الانتباه حقاً عند سيبويه في صفات الحروف ومخارجها، هو تمييزه الدّقيق بين صفة الجهر وصفة الهمس فمصدر الصوت المجهور يشترك فيه الصّدر والفم، ومصدر الصّوت المهموس من الفم وحده، وبمعنى آخر أنّ للرئتين عملاً ما في صفة الجهر، بينما ينفرد الفم بصفة الهمس .

فتعريف المجهور عنده: « حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النّفس أن يجري معه حتّى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصّوت. بينما المهموس حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النّفس معه»[33] .وهو يعبّر بالموضع هنا عن المخرج فيما يبدو، ويجري الصّوت عن الشّيء الإضافي في حالة الجهر عن حالة الهمس التي يجري النّفَس معها لا الصوت، « وقد ظلت محاولة سيبويه تفسير المجهور والمهموس من الأصوات قانوناً سار عليه جميع من جاء بعده من النّحاة والقراء، إلى أن جاءت بحوث المحدثين فصدّقت كثيراً مما قاله في هذا الباب»[34].

والأصوات المجهورة عند سيبويه هي: (ع غ ج ي ق ط ء ل ر ن د ض ز ذ ظ ب م و) .

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

أمّا تعريف الجهر عند المحدثين فهو كالتّالي: يحدث الجهر في الحنجرة حين يتضام الوتران الصوتيان، ويؤدّي ضغط هواء الزفير إلى فتحهما ثم انطباقهما بسرعة كبيرة، وينتج عن ذلك نغمة صوتية واضحة، هي الجهر الذي يصاحب نطق عدد من أصوات اللغة»[35].

وهنا نلحظ أنّ تعريف العلماء المحدثين للمجهور مطابق لتعريف سيبويه، ولا يوجد أيّ اختلاف، حتى وإن اختلفت صيغ التّعريفات للصّوت المجهور إلاّ أنَّ النتيجة واحدة، فإذا ما لاحظنا تعريف سيبويه السّابق وتعريف المحدثين، فإنه يتّضح أنّ الصّوت المجهور يحدث عندما ينطبق الوتران الصّوتيان على بعضهما ولعلّ هذا ما يعنيه سيبويه بإشباع الاعتماد في موضعه، ثم يؤدّي هذا الالتقاء إلى ضغط هواء الزفير ثم إلى فتحهما، وانطباقهما بسرعة كبيرة، وينتج عن ذلك نغمة صوتية واضحة. وهذا ما يعنيه سيبويه بقوله " ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت". مما يعني أنّ المحدثين ساروا على نهج سيبويه في وصف الصوت المجهور.

وأمّا الحروف المهموسة فقد وصفها بأنها «حرف أُضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه»[36].وجعل عدد الحروف المهموسة عشرة وهي: (الهاء، والحاء، والخاء، والكاف والشين، والسين، والتاء والصاد، والثاء والفاء)، جمعها صاحب الجزرية في قوله:**مهموسه "فحثه شخص سكت"**

2- الشديد والرخو:

ذكر سيبويه أنَّ من الحروف ما هو شديد، ومنها ما هو رخو، ومنها ما هو بين الشدّة والرخاوة، فالشّديد « هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه. والحروف الشديدة هي: « الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء والتاء، والدال والباء»[37]. أمّا الحرف الرخو فما أجري فيه الصوت.والحروف الرخوة هي: (الهاء، والحاء، والعين، والخاء، والشين، والظاء، والتاء والثاء، والفاء).وجعل حرف العين مثالاً لما هو بين الشدة والرخاوة، فقال: «وأما العين فبين الرخوة والشدة، تصل الترديد فيها لشبهها بالحاء»[38].

ولا يخرج الوصف الحديث عمّا ذهب إليه سيبويه، فيطلق البحث الصوتي الحديث صفة (الصّوت الانفجاري) على الصّوت الشّديد، ويعرّفها آخرون بأنّها: «انحباس الصوت عند النّطق بالحرف لتمام قوته وذلك لقوة تمام الاعتماد على مخرجه»[39].

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

أمّا البحث الصّوتي الحديث فقد نظر إلى المسألة على نحو مفصل معتمدا على وصف الوحدات الصّوتية في اللّغة، حيث ميّز بين أربعة اصطلاحات: الشدّة والرخاوة، والتوسط، والتركيب[40]، علما أنّ سيبويه هو من صنّف الأصوات حسب طريقة النطق إلى ثلاث طبقات هي الشدة والرخاوة ومابين الشدة والرخاوة[41].

وبالنظر إلى التّعريفات لكلٍّ من هذه المفاهيم الأربعة نجد التّقارب واضحا إلاّ في توظيف بعض المصطلحات الحديثة، فمثلا حين يعرفون الشدة يقولون: وتحدث بأن يصادف الهواء الخارج من الرئتين مجراه قد انسدّ انسدادا تامّا.. فلا فرق بينه وبين تعريف سيبويه الذي يقول: الشّديد هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه، إلا من حيث المصطلحات.

الإطباق والانفتاح:

حروف الإطباق عند سيبويه أربعة هي: الصّاد، والضّاد، والطّاء، والظّاء. ومن المحدثين من يضطرب في تعريف الإطباق حيث يقول: «الإطباق يكون حين يرتفع مؤخر اللسان في اتجاه الطبق ولا يتصل به، على حين أنَّ النطق أي مخرج الصوت يخرج من موضع آخر غير الطبق»[42]. وقد شهد لسيبويه في دقّة وصفه المحدثون من علماء الأصوات، يقول **شاده:**«وهذا التعريف من الوضوح بحيث يستغني عن التفسير، وما أصوب قول سيبويه أنَّ هذه الأربعة لها موضعان من اللسان، فإنَّ الناطق بالصّاد مثلاً لا يكتفي بوضع طرف لسانه على لثته كما يفعل في السّين ولكنه في نفس الوقت يقرّب الجزء الأخير من لسانه إلى ما يحاذيه من الحنك»[43].

أمّا ما سوى ذلك من الحروف فقد وصفها بالمنفتحة، والواقع أنَّ البحث الصّوتي الحديث قد تابع سيبويه فيما يتعلق بالأصوات المطبقة والمنفتحة، غير أنّهم أدخلوا حروف (القاف، والغين، والخاء) ضمن الأصوات الطبقية[44]. ويذكر تمام حسان سبع ملاحظات أشار إليها من خلال تعريف الإطباق والانفتاح ثم قال: وهي « تتفق اتفاقا تامّا مع وجهة النظر الحديثة في العملية النطقية الحركية ... »[45].

3- الاستعلاء والاستفال:

ذكر سيبويه صفة الاستعلاء في حديثه عن الإمالة، لأنّ أصوات الاستعلاء تمنع الإمالة، فقال:« فالحروف التي تمنعها الإمالة هي السبعة، الصاد والضاد والطاء، والظاء، والغين، والقاف، والفاء... وإنّما منعت هذه الحروف الإمالة لأنها حروف مستعلية إلى الحنك الأعلى»[46].ووصف

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

أصوات الحروف الباقية بـ (الاستفال) وذلك عند دراسة أصوات الحلق في حالة وقوعها عيناً في الفعل الماضي. ويصف بعض المحدثين الاستعلاء بأنّه: « صفة لبعض الأصوات الخلفية وهي: القاف، والغين، والخاء وفيها يرتفع اللّسان بجزئه الخلفي نحو اللهاة، فيخرج الصّوت غليظاً مفخماً.

ويميل بعض المحدثين إلى تقسيم أصوات الاستعلاء إلى أصوات طبقية وأصوات مطبقة، فيقول: «وصفة الإطباق ومخرج المطبق يشملهما في التجويد العربي اصطلاح الاستعلاء»[47].

4- التفخيم والترقيق:

التّفخيم لم يعن به سيبويه، ولم يحرص على تفصيل القول فيه، ولعلّ ذلك عائد إلى أنّه قد تحدّث عنه في ظاهرة الإطباق، ولمّا كان الإطباق والتّفخيم صورتين لحالة صوتية واحدة لم يجد دافعاً للإطالة في الحديث عن التّفخيم. والمحدثون بعضهم يعرّف التفخيم بقوله: «صفة صوتية تنتج عن تراجع مؤخرة اللّسان، بحيث يصير فراغ البلعوم الفموي ربع حجمه الطبيعي»[48].

والخلاصة أنَّ المحدثين لم يقدّموا ما يمكن أن يقارن بينهم وبين سيبويه، بل درسوا الظاهرة ووقفوا أمام ما قاله سيبويه دون أن يوجّهوا نقداً يذكر، بل كان بعضهم قاصراً عن فهمها، وشهدوا بأنّ له قدما ثابتة في علم الأصوات، وأنّ اجتهاداته لها ما يؤيدها في العلم الحديث.

- الصفات المفردة:

-1 - القلقلة -2 - الصفير -3 - التكرار -4 -والانحراف- 5- التفشّي .

1- **فالقلقلــة:** هي حروف تخرج إذا ضغطت في مواضعها فيخرج معها صوت من الفم ونبأ اللسان عن موضعه، وسميت هذه الحروف بذلك: لأنّها إذا سكنت ضعفت فاشتبهت بغيرها[49].

وسيبويه وصفها بالحروف "المشربة" أي التي يخالطها شيء ليس من بنيتهاوهو التحريك الخفيف[50].

والغربيون أيّدوا سيبويه في صفة القلقة وأصواتها ، يقول **كانتينو:** «حروف القلقلة وهي التي لها صوت شديد الوقع لأنها جمعت بين الجهر والشدة، أي أنّها تتمثل في خمسة أحرف شديدة ومجهورة، هي القاف والجيم والطاء والدال والباء»[51].

2- **الصّفيـر:** فقال فيه سيبويه: «أمَّا الصاد والسين والزاي، فلا تدغمهنّ في هذه التي أُدغمت فيهن، لأنهنّ حروف الصفير، وهنّ أندى في السمع ، هؤلاء الحروف إنما هي شديد ورخو»[52].

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

ويضيف الدرس الصوتي الحديث أصواتاً أخرى إلى أصوات الصفير وهي: الثاء والذال، والزاي، والشين غير أنهم يعتقدون أنَّ أعلاها صفيراً هي تلك الأصوات الثلاثة التي وصفها سيبويه بـ (حروف الصفير).

2- **التكـرار(التكرير):** وصف سيبويه حرف الرّاء بالمكرر فقال: «وهو حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللاّم ... ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه»[53]. والمحدثون يحدّدون التكرير بالمعنى نفسه الذي حدده سيبويه، يقول إبراهيم أنيس: «لأنّ التقاء طرف اللّسان بحافة الحنك مما يلي الثنايا العليا يتكرّر فيها النّطق بها، كأنّما يطرق طرف اللّسان حافة اللسان حافة الحنك طرقاً ليناً يسيراً مرتين أو ثلاث»[54].

3- **التفـشّي:**

أطلق سيبويه صفة التّفشي على مجموعة أصوات هي: الصاد، والضاد والطاء، والظاء، والشين والراء .فقال في الشين: «الشّين لا تدغم في الجيم، لأنّ الشين استطال مخرجها لرخاوتها... فاجتمع هذا والتّفشي»[55].ثم إنّ سيبويه يجعل التّفشي مرادفاً للإطباق، إذ لمّا كان الصّوت المطبق مفخّماً، وله ميزة في السّمع أو فشو، فقد أطلق على هذا الصوت وصف التفشي.أمّا المحدثون فيذكرون: «أن يشغل الصوت من عرض اللسان مساحة ينتج بها هذا الوشيش».

وختاما فقد حاولت فيما قدمت من دراسة أن أبيّن ما قام به سيبويه من جهد وما يقابله في الدرس اللغوي الحديث، لأصل في نهاية المطاف إلى أبرز النتائج التي يسّرها البحث:

- من خلال ما قام به الأصواتيون العرب بداية من الخليل فإنّ مصطلح علم الأصوات مصطلح عربي بالأصالة سبق أليه علماء العرب وقد أكد ذلك كمال بشر وبراجستشر وغيرهما كثير.
- توصل سيبويه بحسه المرهف أن يحدد صفات الحروف ومخارجها، وقسم الصوت بعد ذلك إلى مجهور ومهموس، وشديد ورخو، وغيرهما..
- لسيبويه قدم السبق في قضايا الإدغام وأن المسائل الصوتية جزء منه.
- تنبّه سيبويه إلى أنّ اللغة قائمة على مبدأ العلاقات، وأن بنية هذا النّظام هي الأصوات، وقد تناول الأصوات المنطوقة للوصف فبين عددها، وحدد مخارجها اعتماداً على السمع والنطق، بالرغم من عدم توفر الأجهزة الحديث التي تمكن الباحث من التدقيق في مثل هكذا قضايا، إلا أن ما توصّل إليه كان في أغلبه يلامس الحقيقة بل عينها.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

- الجانب النطقي أخذ حيّزا مهمّا عند سيبويه في دراسته لأصوات العربية ، وهو جانب ذو أهمية كبرى في نظر المعاصرين، وإن كانوا قد اهتموا بجوانب أخرى في تحليل الأصوات اللغوية كالجانب الفيزيائي.
- توظيف سيبويه لمصطلحات عربية من التراث يدلّ كما ذكر كمال بشر وغيره عن أصالة الدرس الصوتي العربي، خاصة إذا علمنا ما استفاد به من أستاذه الخليل وكان قد دونه في كتابه الكتاب حتى وإن لم يشر إليه صراحة.
- إن الدرس الصوتي عند العرب يقوم على أساس نطقي، كما عند الغربيين، فهو يعنى بالخواص النطقية للأصوات ووظائف جهاز النطق وحركات أعضائه عند إخراج الأصوات.
- إدراك سيبويه أن الدراسات الصوتية هي جزء من دراسة الصرف نفسها، لذا وضع الدراسات الصوتية تحت باب الإدغام. على أساس أن الإدغام ظاهرة سياقية ترتبط بمواقع محددة.
- لا توجد اختلافات جوهرية كبيرة بين ما توصّل إليه سيبويه وما توصل إليه اللغويون المعاصرون إلا في توظيف المصطلحات، وقليلا بما يتعلق بالصفات والمخارج عند توظيف الأجهزة الحديثة كالحنك الاصطناعي وتسجيل الذبذبات الصوتية واستخدام أشعة إكس المتحركة لمجرى الصوت البشري.
- يعدّ سيبويه أوّل من دوّن المصطلحات الصوتية في كتابه، لذلك يعد المصدر الأول لكل من ألّف في هذا العلم.

الهوامش

1- ابن جني: الخصائص، تح: محمد علي النجار، ج1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952 ص33.
2- محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرخ العربي، لبنان، ط1، 2000 ص15.
3- المخزومي: في النحو العربي قواعد وتطبيق، القاهرة، ط1، 1966 ص04.
4- علي زوين: منهج البحث بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ط1، 1986، ص43.
5- عبد الصبور شاهين: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٧، ص ١٩٨.
6- تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص119.
7- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1994 ص50
8- صبيح التميمي: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا لشاده، مركز عبادي للنشر، صنعاء 2000 ، ص31.
9- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص50،49.
10- محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن، ص53.
11- سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام هارون، ج2، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار البقاعي الرياض، ط2، 1982، ص405.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

12- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ، ص53.

13- المرجع نفسه، ص 53.

14- أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1997م ،ص319.

15- بتصرف: تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص53.

16- سيبويه: الكتاب، ص450.

17- المرجع نفسه، ص442.

18- المرجع نفسه، ص445.

19- المرجع نفسه، ص453.

20- ابن يعيش: شرح المفصل، ج10، عالم الكتاب، بيروت، دت، 127.

21- للاستزادة يرجع إلى تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص54 وما بعدها.

22- ينظر: مناف مهدي: علم الأصوات اللغوية، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1998، ص 163.

23- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص57.

24- علي زوين: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص64.

25- كمال بشر: علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000، ص 185.

26- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1961، ص94.

27- غانم قدوري الحمد: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مطبعة الخلود، بغداد، 1986م ص168.

28- ينظر: ابن جني سر: صناعة الأعراب، تح: حسن هنداوي، ج1، دار القلم، ط2، 1993 ص45.

29- تمام حسان: مناهج البحث اللغوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1955،84،85.

30- أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي، ص315.

31- المرجع نفسه، ص 316.

* - فيما يتعلق بأصوات الغار مع مقدم اللسان، ذكر أحمد مختار عمر تفصيلا آخر يرجى العودة إليه، المرجع نفسه، ص316.

32- أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي، ص319.

33- سيبويه: الكتاب، ج4، ص405.

34- عبد الصبور شاهين: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، ص ٢٠٥.

35- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص101،102.

36- سيبويه: الكتاب، ج4، ص434.

37- تمام حسان: مناهج البحث اللغوي، ص 97.

38- سيبويه: الكتاب، ص435.

39- محمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، دار المعارف، مصر، 1962،ص185.

40- علي زوين: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص67.

41- محمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، ص91

42- أحمد حساني: مبادئ في اللسانيات، منشورات كلية الدراسات الاسلامية والعربية، ط2 2013 ص84.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

43- شادة أرتور: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا، مقال في مجلة 'صحيفة الجامعة المصرية" السنة الثانية، العدد (5)، 26ماي 1931، ص14.

44- ينظر: علي زوين: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص72.

45- تمام حسان: اللغة العربية معناه ومبناها، ص63.

46- الكتاب، ج4، ص128،129.

47- أحمد حساني: مبادئ اللسانيات، 85.

48- شادة أرتور: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ، ص 219.

49- ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، ج1، ص203.

50- كمال بشر: علم الأصوات، ص379.

51- كمال بشر: علم الأصوات، ص249.

52- سيبويه: الكتاب، ج4، ص464.

53- المرجع نفسه، ص435.

54- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص67.

55- سيبويه: الكتاب، ج4، ص448